ماكس نوردو

(١) تمهيد

الاستقلال في الرأي صفة نادرة في الناس واندر منها ان تقع على آثارها في التراجم التي يترجم بها عن حياة العظماء . ولطالما فنت شخصيات المترجمين في شخصيات الذين يترجمون عنهم حتى قال اللورد ماكولي كبير نقاد الانجليز في القرن الماضي ان الاغراق في مدح المشاهير مرض اجتماعي لم يخلص منهُ إلاَّ قليل من الكاتبين كثر ما ساقت بهم فكرة الاستقلال في الرأي الى الاغراق في النقد فسرفوا فيهِ حتى اوقعهم حذرهم من المحاباة في معرَّة البعد عن الاقساط في القول والانصاف في الحكم

على ان ادعاء العصمة كشأن الادعاء في كل شيء رذيلة كبرى وهي اشنع ما يبلغ اليهِ الانسان من مدارج الاسفاف والسقوط

نبه على ذلك لاننا سنقدم على الكلام في ماكس نوردو وهو ذو شخصية بارزة في عصرنا الحاضر اختلف الناس فيها اختلافهم في كل شيء فمن قائل بانهُ فيلسوف ومن زاعم انهُ مصلح اجتماعي ومن مقال فيهِ يقول انهُ نبي الجيل الحاضر ومن مسرف في النقد قائل انهُ ليس اكثر من متشائم Pessimist نظر في العالم من ناحيتهِ السوداء فطغى عليهِ سيل الحيرة والفوضى

ان كل كلمة من هذه الكلمات تدل على ان الرجل قد انصفهُ التاريخ . وان كان كل ما في العالم أثر مما فيهِ صح مع ذلك ما قالهُ العلامة سيتوارت ميل :

« لا تطمع أن تنال من الدنيا اكثر مما في استطاعة الدنيا ان تعطيك »

والدنيا قد اعطت ماكس نوردو اكثر ما في استطاعتها ان تعطيهِ . كالت لهُ المدح وزفت اليهِ الثناء كما انها لم تبخل عليهِ بالنقد مكيلاً في بطون الاوراق الخالدة

ومما لاريبة فيهِ ان الحكم على الآثار العقلية بنسبة زمان واحد خطأ نفساني فاشية آثارهُ بين الناس . لذلك يصح ان يترك الحكم على الرجل للتاريخ . وللتاريخ البعيد ايضاً . لان الحكم على منتجات الفكر كما قامت في عقلية واضعيها امر بعيد عن النصفة والاقساط ذلك لأن الواجب ان يتكون الحكم حسبما تخلف اعمال الرجال من الآثار لمستقبل الاجيال

كم ذاع من فكر وكم انتشر من مذهب لو حكمت عليه كما كان في عقل صاحبه لحكمت بانهُ ضار لا نافع في حين انك لو قومته بالقياس الى ما انتج من حركة في عالم الفكر او ما ساق اليهِ من مختلف الجهد في سبيل الوصول الى الحقيقة واردت ان توازن بين ذلك وبين ما فيهِ من خطإٍ لاربت ناحية النفع على ناحية الضرر. اذن فالواجب ان يترك الحكم المطلق للتاريخ اما الحكم النسبي فذلك ما في مستطاعنا ان ندلي فيهِ بقول او نقضي فيهِ برأي

نسوق الكلام في ماكس نوردو كما هو في هذا العصر وبنسبة ما خلَّف من اثر في عقول ابنائهِ غير عالمين ماذا يكون من امرهِ في المستقبل. وغاية ما في مستطاعنا ان نقول في هذا الشأن ان حكم التاريخ على نوردو سيكون حكم التطرف والمغالاة بنسبة ما حكم هو على الدنيا وعلى الجبلة الاجتماعية التي قامت من حولهِ. فإما الى البقاء الخالد وإما الى النسيان الدائم. وكلا الامرين عظيم. لان البقاء بالاثر الفكري ان كان في الواقع خلوداً فان في طيّ الشخصيات في نواحي النسيان نوعاً من الخلود. لانهُ لا ينسى الا من شعر الناس بوجودهِ. فلا نسيان الا بعد وجود وكفى بالمرء فخراً ان ينبه مشاعر الناس بوجودهِ الحقيقي ليكون خالداً

***

كان ماكس نوردو حر الرأي بعيداً عن التقاليد. لذلك كان بلا دين. رجل رضي من الدنيا بان يعيش فيها ناقداً لا أقل من هذا ولا اكثر. واول ما ادى بهِ اليهِ نقدهُ ان يكون بلا دين. فكذلك عاش وعلى هذا طواهُ التراب

غير انهُ نظر في العالم نظرة الناقد فلم يأتلف مع عقلهِ ان يكون هذا العالم بما فيهِ من النظام بلا صانع وانهُ نتيجة الصدفة العمياء فاعتقد بان للكون صانعاً حكيماً مدبراً تبدو فيهِ حكمتهُ ولكنهُ استصغر على الصانع العظيم امر الاعتناء بما سماهُ الدابة المفكرة التي ندعوها الانسان فقال بان الاديان لم تخرج الا من عقول واضعيها تحتاج اليها الطبيعة الحيوانية في الانسان اكثر مما تحتاج اليها الطبيعة الفاضلة الوادعة. يحتاج اليها من تقضي الضرورة الى ارهابهِ بعقاب النار والعذاب المقيم او بترغيبهِ بالنعيم الدائم فهو بذلك الهي لا غير Deist لا الهي متدين Theist. والاول يحجد الاديان واما يعتقد بالله والثاني يعتقد بالله وبالاديان ايضاً

كما ان نوردو قد استصغر الانسان في جانب الله كذلك استصغر العقل الانساني

إزاء الكون فقضى بان العقل محدود لا يبلغ مداهُ الاَّ دائرة صغيرة من النظر لا يصح ان يحكم من ناحيتها على العالم مثلهُ كمثل اعمى الذين اخذوا يصفون فيلاً فمن امسك بذيلهِ قال انهُ كالحبل ومن لمس بطنهُ قال انهُ كالكرة ومن وقع على رجلهِ قال انهُ كالشجرة فالكل صادق على درجة محدودة ولكنهُ مخطىء على درجة غير محدودة . فاذا قال الفلكيون ان العالم عبارة عن قانون الجاذبية واذا قال الكيميون ان العالم هو الجوهر الفرد واذا قال الميكانيكيون ان الكون عبارة عما فيهِ من قوانين القوة والطاقة الى غير ذلك فليسوا مخطئين بل هم مصيبون ولكن بنسبة ما والى حد محدود . في حين انهم مخطئون لانهم حكموا حكماً عامًّا على شيء نظروا فيهِ من جهة خاصة . فاذا سألت هؤلاء مثلاً لماذا يكون للجاذبية يد في نظام العالم ولماذا خصت المادة بسنن الجذب والدفع او لماذا تتكون المادة من جواهر فردة ما وجد هؤلاء من جواب أروح عليهم واخرج بهم من ضيق مايوقعهم فيه العقل من القول بانها كذلك سبقت ارادة الله

***

ان كتاب نوردو الذي اكسبهُ شهرة الشاؤم بحق هو كتاب الفساد الاخلاقي Degneration ولكن هل كان نوردو متشائماً حقيقة ؟ ذلك ما سوف نظهرهُ فيما سنكتب فيهِ بعدُ. غير ان نزعتهُ في ذلك الكتاب غريبة خارجة عن تيار الافكار التي سادت في القرن التاسع عشر. فبينما كان اكثر المفكرين يقولون بان الانسان يرتقي ويتقدم مستمدين من تقدم العلوم الطبيعية وتسود الانسان على قوى الطبيعة دليلاً على ذلك اذ بنوردو يقول بان الانسانية تنحط .واين ؟ في اوربا. مهبط وحي العلم وعنوان المدنية الحديثة . اما البحث في الاسباب التي ساقت الى هذه النزعة فسيكون ختام هذا التمهيد ومن ثم نستطرد الى البحث في نوردو بحثاً تحليلياً لنعرف هل كان متشائماً او متفائلاً

لقد اشرف نوردو من شرفة عقلهِ الكبير وقوة ابتكارهِ على ابناء جيلهِ وهم مقدمون على عصر انقلاب اجتماعي لم يعهد لهُ التاريخ مثيلاً . اشرف على نهر الحياة الاوروبية الفائض فلم يجرفهُ التيار بل ظلَّ واقفاً على الشاطىء يتأمل من تدافع اوجه تلك الحياة وتجاذبها من تجانسها وتنافرها فاستنتج ان هنالك انحطاطاً وتدهوراً وضؤولة في الملكات مثلهُ في ذلك كمثل «روسو» في اول رسالة نال عليها

جائزة جامعة ديجون العلمية إذ اشرف على ابناء جيلهِ وهم مقدمون على عصر الثورة فاتخذهم عنواناً على الحياة البشرية فقضى بان الانسانية سائرة في طريق التقهقر

ان عصور الانقلاب في الجماعات اشبه شيء بسير الحمى في الناس تلقيهم في المرض وتتدرج بهم فيهِ شيئاً فشيئاً حتى اذا ادركهم عصر الانقلاب اخذهم الهذيان فعمدوا الى التحطيم والهدم فاذا انقشعت غيامة الانقلاب رجعوا الى البناء والتشييد ناظرين في انقاض ما تهدم ليستخلصوا منهُ النافع وينبذوا الضار

اشرف نوردو على جماعات عصرهِ وهم في بدء الانقلاب وكاد يدركهم هذيان الحمى وحكم فيهم نوردو حكمهُ وهم في حالهم تلك شنوفين بالافلات من مساوىء الانقلاب وانى لهم ان ينفذوا من اقطار الطبيعة وهم ابناؤها التائرون تخيل اليهم ان العقل منجيهم فاكبوا على العلم الانساني يستنزلون وحيهُ فلم يخرجوا من ذلك الاَّ بعماء صرف وفوضى لا نهاية لها . اوقعهم علمهم في الخلاف وأنهى بهم الى التشاؤم . ولم يصلوا الى هذا الحد الاَّ ليحكم عليهم نوردو بانهم آخذون باسباب الفساد ضاربون في اصول الانحلال الاخلاقي

ولا مشاحة فيه ان كتاب نوردو خير كتاب يخرج من عقل مبتكر في عصر انقلاب تشرف عليهِ الجماعات بعد ان يعنت الباحثون انفسهم في البحث عند مخرج من فوضى النزعات القائمة فيهِ . اما الصورة الحقيقية لعصر نوردو فلا يظهرك عليها مثل تأملك في الحالات الاجتماعية التي قامت من حولهِ وكل ما فيها يدل على ان جماعات المدنية الحديثة مشرفة على انقلاب وان هذيان الحمى كاد يدركها

يقوم الآن عند الناس شعور طبيعي بان درجة محتومة من درجات التشوء الاجتماعي واقع في المدنية الحديثة قد آن اختتامها وان ابناء القرن العشرين يستقبلون عهداً جديداً غير انهُ من ابعث الاشياء القائمة في هذا العصر على العجب والتأمل انك لن تجد من خطرة فكر يفيض بها علينا اولئك الذين يتكلمون باسم العلم ورسوخ القدم فيهِ يفصحون بها عن المتجه التي تتمشى فيهِ حالات التقدم المستقبلة . فانك اينما وليت وجهك باحثاً في اية جهة من جهات المعرفة الانسانية التي تتجشم مؤونة التأمل في المسائل الاجتماعية والبحث فيها لا تقع الاَّ على مظاهر جلية من التغير والقلق بارزة في جبين هذا العصر . وعلى الرغم من تلك الخطوات الحثيثة التي خطاها العلم خلال القرن الماضي وهذين العقدين اللذين فرطا من القرن

العشرين فانك ان تجد محيصاً عن الاعتراف بانهُ لم يقم بعد علم نستطيع بحق ان ندعوهُ « علم الجماعات الانسانية » . اذ اي أثر للعلم اليقيني الحق في موضوعات استحكمت فيها فوضى المباحث المتناثرة تحت كثير من مختلف العناوين والتعاريف؟

بيد ان الاستنتاجات العامة التي قصد بها وضع فكرة خاصة في وحدة تخضع للسنن التي تمضي مؤثرة في المظاهر الاجتماعية المختلطة القائمة في عصرنا هذا لم تكن ناجاً لتفكير مدارس علمية حقة عنيت بدرس المشكلات الاجتماعية وصرفت همها نحو معرفة اصل الاجتماع الانساني وتعقب خطى تطورهِ ونشوئها . ذلك ما تقوم عندنا عليهِ اوجه الترجيح مهما تلكأنا في الاعتراف بانهُ واقع

إن تلك المستنتجات العامة لم يتقدم وجه النظر فيها الآن من طريق تلك المدرسة الاجتماعية الثورية التهديمية التي كان « كارل ماركس » زعيمها الاول وعلمها الفرد

اما اذا اردنا ان نحكم على العلم بمقتضى اقوال متنطسيهِ فاننا نجدهُ رغم ان اكبر مفاخرهِ في القرن التاسع عشر قد انحصرت في الكشف عن خطى النشوء والتطور الحيوي حتى انتهى الى الاجتماع الانساني قد وقف واجماً ازاء المسائل التي تعتلها الجماعات في حالتها الحاضرة . والظاهر انهُ ليس لدى العلم من شيء يزودنا بهِ عن حالات التطور المنتظرة التي سوف تمضي فيها الجماعات في المستقبل

لقد وقع في القرن الماضي وفي شباب نوردو وفتوتهِ اكبر مثال عما اتجه فيهِ العلم ان ركن اليهِ لاستدرار وحيهِ في تنوير الاذهان للفحص عن تلك المشكلات التي تقاتل أزاءها الجماعات . فالفلسفة التركيبية Synthetic philosophy التي كتبها « هربرت سبنسر » من الاعمال التي يتوج بها جبين النصف الاخير من القرن الماضي . ولا خلاف في أن هذه الفلسفة من معجزات العقل البشري لا من جهة ما قصدت اليهِ من توحيد فروع المعرفة الانسانية وحده بل من جهة ما ابانت عنهُ من خضوع الجماعات لقواعد النشوء الحديثة التي وضعت في النشوء والارتقاء عامة تلك المسألة التي نعتقد بحق ان الوقوف على مفصلاتها ومقوماتها أمر فيهِ من الخطر والشأن ما يجعل بقية منتجات العلم مقيسة بها اشياء اولية في نظر الاجتماعيين والمصلحين والفلاسفة وعلى الاخص في نظر نوردو

على الرغم من هذا فان كل ما استطاع « سبنسر » أن يلقي من نور الاختبار

على تلك المعضلات الاجتماعية التي كانت قائمة في عهده والتي تولدت منها الحالات القائمة في عصرنا وهي حالات لم تبلغ من الشدة في عصر من العصور مبلغها في العهد الحاضر لم يكن الا شعاعاً ضئيلاً جد الضؤولة حتى انك لتجد ان مباحثهُ وثمار افكارهِ وتأملاتهِ من اية ناحية قلب الاجتماعيون والمصلحون اوجه الرأي فيها لم تسق الا الى ازدياد الخرق اذ انتجت تينك المدرستين المتناقضتين مدرسة القائلين بالفردية، تسلط الفرد واستقلاله وغناء كفاءته ومواهبهِ ومدرسة القائلين بالاشتراكية ، تسود الجمعية المشتركة على الفرد وخضوعه لها

ومذ قام هربرت سبنسر في انجلترا ينظر الى النزعات الاشتراكية التي قامت في عصرهِ نظرة البغض لا بل نظرة الجزع والاستكراه ومذ انقسم الباحثون الذين تخرجوا في مذهبهِ الى مناصرين ومؤيدين الى قيام الاستاذ « شافل » في المانيا ناظراً الى المستقبل نظرة من يعتقد انهُ لا محالة مفضٍ بالناس الى المبادىء الاشتراكية المتقاة حتى ظهور « ماكس نوردو » ليبشر ابناء جيلهِ بانهم منحطون متدهورون لا تقع في طوال ذلك العصر الا على ضروب من تباين الآراء والوان من رياح الافكار المضطربة

اما وقوف العلم ازاء ذلك وقفة الواجم الذي تملكته قوى السلب من كل ناحية فان الاستاذ « هكسلي » الشرح المشهور والباحث الاجتماعي الكبير ليمثلها افضل تمثيل اذ اكب في بعض كتاباتهِ على تسفيه آراء المدرستين القائلة بالفردية والقائلة بالاشتراكية معتبراً ان كلا المبدأين من المضادات لبديهة العقل بل من المستحيلات عملاً والمتناقضات عقلاً

ولن نستطيع ان نعتبر كل هذه الجهود كاوليات رمت نحو استيضاح اية فكرة مقبولة فيما تنحصر فيهِ واجبات الانسان ازاء ما يحيط بالمدنية من ظروف وما يحف بها من حالات . فان الاستاذ « هكسلي » رغم حملتهِ المنكرة على هاتين الفكرتين لم يزدد يقينهُ في المستقبل الا غموضاً وابهاماً حتى انهُ يسوق بقرائهِ زاعماً هدايتهم متمسداً تنويرهم بمبادىء يأتمون بها الى مزالق لا يجدون فيها من يقين يستمدون وحيهُ او امل خاص يرتقبونهُ

ذلك في حين ان اقل الناظرين في حالات الاجتماع حنكةً ليعتقدون بان الليالي حبالى تكاد تتمخض عن عظيم الحوادث وخطير الانقلابات الاجتماعية . حتى

اولئك الذين يزجون بانفسهم في مدارج النقد التهديمي يشعرون باقتراب ذلك وحلول اوانه . فان الاستاذ « هكسلي » نفسهُ رغم نتائجهِ السلبية التي دعى اليها زماناً نيظهر عظهر أشد النهليست تطرفاً في استنكاره الحالات القائمة في الاجتماع حيث قال في احدى خطبهِ المشهورة :

« ان اكمل صورة من صور المدنيات الحديثة لتصور لي حالة من حالات النوع الانساني لا تتضمن نزعة خيالية ذات وزن ما ولا تملك شيئاً من روح الاستقرار والثبات . ولن اجد لدي من الاعتبارات ما يحطني اتلكاً في القول بانهُ اذا لم يكن لدينا من امل في تهذيب حالات اكبر مجموع من السلالة البشرية واذا صح ان تقدم العلم والمعرفة وازدياد سلطة البشر على الطبيعة الذي يستوجبهُ تزايد المعلومات واستجماع الثروات التي يستغلها الانسان من تسوده على قوى الكون لا تحدث فرقاً في مطالب الانسان وحاجاتهِ العظمى مع ما هو مقترن بذلك من الاضمحلال التكويني والسقوط الادبي فاني لأرحب بمذنب عظيم يكتسح من صفحة العالم ذلك الاسر كلهُ »

ان مجموع تلك الافكار الكبيرة التي يبعث بها في عقول الناس هذا النوع من الشعور لهي التي تقيم جماعات المدنية الحديثة وتقعدها بالغة من التأثير فيها أبعد مبلغ . وما من شيء اثبت اليوم في عقائد الاجتماعيين والمصلحين من ان هذه الافكار سوف تؤثر أثرها المحتوم

ولقد نظر المستر « هنري جورج » المؤلف الاميركي الكبير الى الاجتماع من وجهة القوميات العرفة متمثلاً الى أي حد سوف تبلغ خطوات كل شعب من الشعوب الضاربة في اصول الارتقاء الذي ؟ لان « تعليم الناس تفرض عليهم معيشة الشقاء والفقر لا يزيدهم الا كنوداً وكفراناً » — كما ان اتخاذ ابعد حالة من حالات « عدم المساواة الاجتماعية اساساً لارتكاز النظامات السياسية التي يفرض من الوجهة النظرية ان الناس متساوون امامها لأمرٌ فيهِ من البعد عن العقل بمقدار ما تحاول ابتناء هرم يرتكز فوق الارض على قمتهِ لا على قاعدتهِ »

تلك هي الحالات التي احاطت بالجماعات التي اصدر فيها نوردو حكمهِ . جماعات هاذية محمومة يكتنفها عصر انقلاب اخذ باسباب حياتها . اذن فهي جماعات خيرُ ما يخرج فيها كتاب الانحلال الاخلاقي

اسماعيل مظهر